

الكتابات التأسيسية بالجزائر في العهد العثماني - خصائصها ومضامينها -

د . خيرة بن بلة*

تكتسي الكتابات الأثرية التأسيسية أهمية كبيرة في علم الآثار باعتبارها وثائق أصيلة ومعاصرة للأحداث، لذا يمكن الاعتماد عليها في عملية التأريخ، لما تحويه من معلومات قيمة في الأنساب والأسماء والألقاب والوظائف والتراكيب اللغوية، فضلا عن الصيغ الدينية الواردة عليها والعبارات الدعائية والتواريخ، كما تتجلى أهميتها فيما يتعلق بدراسة أسلوب الخط العربي والتعرف على مختلف أنواعه المستعملة في هذه النقوش، زيادة على أن العديد من هذه الكتابات زينت بعناصر زخرفية نباتية وهندسية على جانب كبير من الأهمية في دراسة مراحل تطور الفن الإسلامي.

وتنقسم الكتابات الأثرية في الجزائر خلال العهد العثماني إلى ثلاثة أنواع هي:

- **كتابات أثرية زخرفية:** تتضمن بعض الآيات القرآنية والأدعية والعبارات الدينية الغرض منها التبرك وتزيين المبنى.
- **كتابات أثرية زخرفية تذكارية:** تتضمن ذكرى بناء أو تجديد أو توسيع واسم صاحب العمل، والغرض منها التزيين وتخليد ذكرى العمل، والتبرك إن أضيفت إليها بعض الآيات والعبارات الدينية والأدعية.
- **كتابات أثرية تذكارية:** تكون عادة عبارة عن لوحات من مواد مختلفة يسجل عليها تاريخ العمل وصاحب العمل وبعض الأدعية له، والغرض منها تخليد ذكرى العمل فقط.

ومن الملاحظ أنه وصلنا عدد كبير من هذه الكتابات التي تعود إلى العهد العثماني محصورة في الفترة ما بين ١٥١٦-١٨٣٠ وهي موزعة على مختلف مدن الجزائر مثل: الجزائر ووهران وقسنطينة ومعسكر وتلمسان. وقد تكون مثبتة على بعض المباني، أو محفوظة في بعض المتاحف الوطنية.

والجدير بالذكر أنه لا توجد أية دراسة علمية كاملة موسعة وشاملة كل الجوانب لهذه الكتابات رغم الأهمية التي تكتسبها سواء من حيث الخطوط المستعملة أو من حيث المضمون من عبارات وألقاب ووظائف وأسماء، مما يساعد على سد الفراغ الذي يميز الدراسات المتعلقة بالعهد العثماني بالجزائر، ما عدا بعض المحاولات التي قام بها كل من الأساتذة:

* أستاذة التعليم العالي بقسم الآثار - جامعة الجزائر ٢.

دوفو **DEVOULX** الذي قام بنشر الكتابات المحفوظة بمتحف الآثار القديمة في كتابه: « Epigraphie indigène du musée archéologique d'Alger »

وذلك عام ١٨٧٤. وبعده الأستاذ كولان **COLIN** الذي قام بتصحيح الأخطاء التي وقع فيها الباحث الأول في قراءة النصوص وذلك ضمن مدونته:

« Corpus des inscriptions arabes et turques d'Algérie, Département d'Alger »

والتي جمعت الكتابات العربية والتركية بمدينة الجزائر وهذا سنة ١٩٠١ ولم تكن سوى نشرًا لهذه الكتابات دون الاهتمام بدراسة المضمون. إضافة إلى الأستاذ مرسييه **MERCIER** الذي قام أيضًا بنشر كتابات الشرق الجزائري سنة ١٩٠٢ ضمن كتابه:

« Corpus des inscriptions arabes et turques d'Algérie, Département de Constantine »

وتميزت هذه الكتابات بالعديد من الخصائص المتعلقة بالجوانب المادية والفنية من مادة خام وخط وزخارف، إضافة إلى المحتوى أو المضمون الذي شمل جوانب أخرى لا تقل أهمية عن الأولى والمتمثلة في عناصر نصية جاءت على هيئة صيغ وأسماء لحكام وألقابهم وتواريخ بمختلف الطرق. وسوف نحاول فيما يلي توضيح هذه الجوانب وتلك مع استخلاص لمميزات كتابات كل مرحلة من مراحل العهد العثماني بالجزائر.

١. المادة الخام:

الملاحظ على هذه النقوش أن أغليتها نفذت على مادة الرخام وقلما نجد مواد أخرى مثل الحجر أو البازلت، إضافة إلى مادة الجص التي استعملت كأفاريز تعلق جدران المباني أو على هيئة أطر تحيط بالمحاريب.

٢. التقنيات:

استعملت الطرق والتقنيات المعروفة من الحفر في نقش الكتابات وزخارفها (صورة ١) وعرفت الجزائر خلال العهد العثماني طريقة انتشرت بصورة واسعة جدا على مادة الرخام، وهي تتمثل فيما يسمى بالحفر الغائر المملوء بالرصاص.

■ طريقة الحفر الغائر المملوء بالرصاص.

يتم ذلك بحفر الحروف ووضع ثقوب داخل القنوات المحفورة ثم يصب فيها الرصاص ثم يسوى هذا الأخير في نفس مستوى اللوحة حتى لا يبقى بارزا عنها بعد الجفاف، فتظهر الكتابة وكأنها مطلية باللون الأسود فوق الرخام. (صورة ٢).

٣. الخطوط المستعملة:

استعملت العديد من أنواع الخطوط بمجموعة النقوش موضوع الدراسة وتتمثل في كل من خط الثلث (صورة ٣) وخط النسخ (صورة ٤) والخط المغربي (صورة ٥) ونادرا الخط الفارسي (صورة ٦). والملاحظ أيضا على الخطوط أن درجة جودة الخط وإتقانه كانت تخضع لمدى مهارة الخطاط وإجادته له، والدليل على ذلك أننا لاحظنا نقوشا تعود إلى الفترة الأولى من العصر العثماني تميزت بجودة الخط وإتقانه.

٤. صور الحروف:

اتخذت الحروف صوراً عديدة في الحالتين المفردة والمركبة من مبتدأة ومتوسطة ومتطرفة.

- حرف الألف: مطلق - محرف - صاعد.
- حرف الباء: موقوفة - مدغمة - يابسة - منبسطة - مجموعة - تشبه حرف السين
- حرف الجيم: مسبلة - محققة - ملوزة - مرسلة - مجموعة - رتقاء - رتقاء مرسلة - رتقاء مجموعة - رتقاء مسبلة - مبسوفة.
- حرف الدال: مجموعة - مقورة - حادة - مختلصة - مخظوفة.
- حرف الراء: مجموعة - مدغمة - مبسوفة - مقورة - مجموعة - بتراء - مدغمة بتراء.
- حرف السين: محققة - معلقة - مقورة - مجموعة.
- حرف الصاد: تميل الى المثلث - صاعدة - مجموعة.
- حرف الطاء: تشبه المثلث - تشبه الدائرة - موقوفة.
- حرف العين: مربعة مفتوحة - مفصصة - يابسة - مرسلة - مجموعة - نعلية - صادية - محيرة - فك الأسد - تشبه الياء الراجعة - مربعة مرسلة - مربعة مسبلة - مربعة مفتوحة.
- حرف الفاء: مطموسة - يابسة - تميل الى الاستدارة - ملوزة - موقوفة - مدورة - مجموعة - مبسوفة.
- حرف القاف: مبسوفة - مجموعة - مدورة - ملوزة.
- حرف الكاف: مبسوفة - مشكولة - مجموعة - موقوفة.
- حرف اللام: مجموعة - مطلق - محققة - يابسة - معلقة - مجموعة - مسبلة - بتراء.
- حرف الميم: مدغمة - مختالة - مستديرة الرأس - مرسلة - محققة - ملوزة - مقلوبة - مسبلة - مبسوفة - مدغمة مختالة - مخظوفة - معلقة - مدغمة مجموعة - مقلوبة مفتوحة مجموعة - مدغمة مخظوفة - ملوزة مجموعة.

- حرف النون: مجموعة - مدغمة - مبسوطه - مقورة - مختلصة.
- حرف الهاء: مربعة - مقسطة - وجه الهر - مشقوقة مقورة - مشقوقة ملوزة - مردوفة - محدوبة - مخطوفة - مدغمة - مشقوقة طولاً.
- حرف الواو: مجموعة - مبسوطه - مخطوفة - مقورة .
- حرف اللام ألف: مرشوقة - محققة موقوفة - وراقية - مرسله - مسبلة - مرسله مبتورة - محققة مسبلة.
- حرف الياء: مجموعة - راجعة - مقورة - مبسوطه.

٥. الزخارف:

إن العناصر الزخرفية التي زينت بها الكتابات تمثلت في الغالب في العناصر النباتية مثل التوريقات وزهرة اللالة التي تنوعت صورها الفنية وطريقة توزيعها على النقش، فظهر منها النوع ذو ثلاثة فصوص أو خمسة فصوص أو متعددة الفصوص بالإضافة إلى الوريدات والزهرات البسيطة، وأنصاف المراوح النخيلية والفروع النباتية المتموجة.

٦. المحتوى:

احتوت النصوص على عدد من المضامين كالصيغ الدينية المتمثلة في الإستهالات الدينية والأدعية إضافة إلى الألقاب وأسماء الحكام أصحاب العمل، حيث لوحظ ان النص ان كان متعلقاً بتأسيس مبنى أو تجديده تحتوي على الإستهلال الديني والتنصيب على العمل وذكر صاحبه والدعاء له وامتداح البناء ثم ذكر تاريخ الفراغ من العمل، والملاحظ أيضاً ان النقوش المتعلقة التي تخلد ذكرى بناء المنشآت الدينية تتضمن عبارات دينية كثيرة بعضها آيات قرآنية أو صيغة التوحيد أو الحمد أو الشهادة أما الأدعية الموجهة لصاحب العمل فقد تشهدها نقوش المنشآت الدينية والعسكرية والمدنية. ويمكن حصر العناصر الواردة في النصوص كالتالي:

- الاستهالات الدينية.
- التنصيب على العمل.
- صاحب العمل.
- الدعاء.
- تاريخ العمل.

وليس من الضروري أن تتوفر كل هذه الصيغ في نص واحد. وأهم ما يميز النصوص التي تتعلق بالمباني الدينية أنها تتوفر على الاستهالات الدينية في أغلب الأحيان بينما تلك التي تتعلق بالمباني العسكرية والمدنية قلما تتوفر فيها ذلك وتمثلت مضامين النصوص فيما يلي:

■ الاستهلالات الدينية:

- بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد.
 - لا اله إلا الله الملك الحق المبين ، محمد رسول الله صادق الوعد الأمين.
 - الحمد لله وحده والصلاة على رسوله.
 - بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.
 - بسم الله الرحمن الرحيم.
 - بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد.
 - بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله.
 - بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.
 - بسم الله وأول الذكر لله ونصلي على محمد امتثالاً للأمر بالصلاة
 - ما شاء الله سبحانه الله.
 - بسم الله وأول الذكر الحمد لله ونصلي على محمد امتثالاً للأمر بالصلاة.
 - الحمد لله.
 - الحمد لله وحده.
 - الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.
 - لا اله إلا الله. محمد رسول الله.
 - لا اله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله صادق الوعد الأمين.
 - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم – في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال –
- ### ■ الأدعية:
١. أرشده الله إلى التوفيق بحرمة الفاروق والصديق.
 ٢. يسر الله مراده وبلغه كل ما يشاء.
 ٣. جعل الله سعيه سعياً مشكوراً وجزاؤه جزاءاً موفوراً.
 ٤. ليجد الذي جعل هذه العين تسيل بعون الحق مائة ألف ثواباً لكل قطرة منها.
 ٥. ليرضى الله وليكن في الفردوس العالية.
 ٦. جزى الله له خيراً في يوم الجزيل.
 ٧. كمل من الله ملك من بناه.
 ٨. فليقبل الله خيراته وليجزيه أجرها النعيم والرضوان.

■ تسجيل التاريخ:

استخدمت عدة طرق لتسجيل التاريخ فهناك نقوش تضم الفترة والشهر والسنة ويسجل فيها التاريخ بالحروف أو بالحروف والأرقام معا. وبعضها تضم الشهر والسنة وتسجل التاريخ بالحروف أو بالحروف والأرقام في آن واحد. أما معظم النقوش فقد ذكر تاريخها بالسنة فقط وسجلت إما بالحروف أو بالأرقام أو بالحروف والأرقام معا أو بالجملة الحسابية بنوعيهما، على الطريقة المشرقية والطريقة المغربية.

■ العبارات التي تتبع التاريخ:

١. من هجرة المختار صلى عليه البار.
٢. بعد الهجرة النبوية.
٣. من هجرة من له العز والشرف.
٤. من هجرة صاحب الوفي.
٥. من هجرة المختار أحمد الإمام عليه أفضل الصلاة والسلام.

■ أسماء الحكام:

إن الحكام الذين وردت أسماؤهم يمثلون فترات الحكم العثماني بالجزائر الذي تميز نظامه بتعاقب أنظمة سياسية عديدة عبر فترات تاريخية محددة، الفترة الأولى هي فترة حكم الباييرباي أو باي البايات وتمتد ما بين ١٥١٨ م و ١٥٨٨ م أي من استقرار الحكم التركي في الجزائر حتى حكم العلي الذي تنحى عن مقاليد السلطة، لأن الدولة العثمانية عوضتهم بالباشاوات وعندئذ تبدأ الفترة الثانية من العهد العثماني وتمتد ما بين ١٥٨٨ و ١٦٥٩ فكان كل واحد من هؤلاء الباشاوات يتولى الحكم لمدة ثلاث سنوات، غير أن حكمهم المؤقت كان يتميز بعدم الاستقرار^١ ولم يراعوا المعاهدات التي أبرمت مع بعض الدول الأوروبية ولا يحترمونها^٢ مما أفسح المجال أمام قادة الجيش " الأغوات " لتولي شؤون الحكم وتكوين سياسة مستقلة عن الدولة العثمانية، وبذلك تكون فترة الأغوات هي الفترة الثالثة وهي فترة قصيرة تمتد ما بين عامي ١٦٥٩ م و ١٦٧١ م. وتميزت بالاضطرابات في نظام الحكم وشيوع الفوضى في الشؤون الإدارية، وهكذا أخفق الأغوات في إدارة شؤون البلاد^٣ فقرر الديوان تغيير نظام الأغاوية وتعويضه بنظام آخر يوفر الاستقرار، فأقاموا نظام الدايات

^١ ناصر الدين سعيدوني والمهدي بو عبدلي، الجزائر في التاريخ، الجزء الرابع: العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ١٩٨٤، ص ١٤، ١٥.

^٢ نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، الطبعة الثانية، كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، ١٩٦٥، ص ١٠٨.

^٣ ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ١٥.

وصار الديوان ينتخب الداى ليتولى منصبه طوال سنى عمره.٤ وبذلك تبدأ الفترة الأخيرة في حكم الجزائر وهي فترة حكم الدايات وتعتبر أطول فترات الحكم التركي للجزائر واستمرت بدون انقطاع من سنة ١٦٧١ حتى ١٨٣٠، وعرفت فيها الجزائر مقومات السياسة وتمتعت بالاستقلال الفعلى عن الدولة العثمانية.٥

ومن أسماء الحكام الذين أمروا بالأعمال المعمارية والذين ورد ذكرهم ضمن نصوص الكتابات التأسيسية مايلي:

مرحلة البايلر بايات (١٥١٨-١٥٨٨م)

- خير الدين بن يوسف يعقوب التركي. (١٥١٨ - ١٥٣٤م)
- محمد بن صالح رايس (١٥٦٧ - ١٥٦٨م)
- أحمد عراب (١٥٧٢ - ١٥٧٤م)

مرحلة الباشوات (١٥٨٨ - ١٦٥٩م).

- مصطفى باشا (١٥٩٤ - ١٥٩٩م).
- حسين باشا: (١٦٢٧ - ١٦٣٤م).

مرحلة الأغوات (١٦٥٩ - ١٦٧١م)

- الحاج علي آغا (١٦٦٥ - ١٦٧١م).

مرحلة الدايات: ١٦٧١ - ١٨٣٠م)

- الحاج شعبان داى (١٦٨٩ - ١٦٩٥م)
- الحاج أحمد داى (١٦٩٥ - ١٦٩٨م).
- علي باشا (١٧١٠ - ١٧١٨م).
- محمد خزناجي (١٧١٨ - ١٧٢٤م)
- ابراهيم بن رمضان (١٧٣٢ - ١٧٤٥م).
- محمد بن بكير (١٧٤٨ - ١٧٥٤م).
- علي بوصبع (١٧٥٤ - ١٧٦٦م)
- محمد بن عثمان (١٧٦٦ - ١٧٩١م).
- حسن باشا (١٧٩١ - ١٧٩٨م)
- مصطفى باشا (١٧٩٨ - ١٨٠٥م).
- عمر بن محمد (١٨١٥ - ١٨١٧م)
- علي الشريف داى (١٨٠٩ - ١٨١٥م).
- حسين باشا (١٨١٨ - ١٨٣٠م)

4 نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص ١٠٩.

٥ ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ١٤.

■ الألقاب والوظائف:

- آغا - الأعظم - الأفضل - الإمام - الأمير - أمير المؤمنين - الأمين -
- باشا - بك - حاج - حضرت - خاقان - خان - خازندار - داي - دولة -
- ديوان - رضي - سلطان - سيد - شهير - صدر - عادل - عبد - عسكري
- عشجي - غازي - فخر - فريد فريدون - كبير - مالك - مجاهد - منصور
- مولى - ناسك - همام - والي - وزير.

٧. المميزات العامة للكتابات.

■ مجموعة الفترة ما بين دخول العثمانيين إلى نهاية القرن الحادي

عشر الهجري

وهي فترة تشمل ثلاثة مراحل من الحكم العثماني بالجزائر وهي مرحلة البايلاييات ومرحلة الباشوات ومرحلة الآغوات، وأهم ما ميز هذه المجموعة من النقوش ما يلي:

- قلة عدد الكتابات المتعلقة بالمباني وهذا يرجع لعدم الاستقرار السياسي والذي يؤثر سلبيًا على حركة البناء والتعمير.
- نفذت أغلبية الكتابات بأسلوب الحفر البارز.
- استعمل كل من الخط الكوفي والتثاق والفارسي.
- قلة العناصر الزخرفية التي تزينها.

■ مجموعة القرن الثاني عشر الهجري

وهي مرحلة حكم الدايات، وتعتبر من أزهى فترات الحكم العثماني بالجزائر من التوسع والازدهار العمراني، ومما يلاحظ على هذه المجموعة ما يلي:

- ورد الكثير منها لتخليد بناء الأسبلة.
- دخول تقنية جديدة في التنفيذ وهي طريقة الحفر الغائر المملوء بالرصاص، إلى جانب تقنية الحفر البارز المستعملة من قبل.
- الإتقان في رسم الحروف.
- ظهور العديد من الزخارف النباتية المتمثلة في التوريقات والأزهار إضافة إلى العناصر الهندسية كالأشرطة.
- محاولة حصر السطور وأنصاف السطور ضمن خراطيش مستطيلة بأطراف مفصصة.

■ مجموعة بداية القرن الثالث عشر الهجري

تعود هذه المجموعة إلى الفترة الأخيرة من الحكم العثماني بالجزائر وتعتبر امتدادًا لعصر الدايات، ومن أهم مميزاتهما:

- الإكثار من استعمال أسلوب الحفر الغائر المملوء بالرصاص.

- أصبح خط الثلث هو الخط السائد عموماً.
- كثرة استعمال اللغة التركية العثمانية في نصوص المباني.

خاتمة

- هذه مجموعة الخصائص والمضامين التي تميزت بها الكتابات التأسيسية بالجزائر في العهد العثماني، وهي تبين:
- الاهتمام البالغ الذي شهدته الحركة العمرانية.
 - معرفة العديد من شخصيات حكام الجزائر وألقابهم من خلالها.
 - اكتشاف معالم هدمها الاستعمار الفرنسي وأهملتها المصادر.
 - استعمال اللغتين العربية والعثمانية في كتابة النصوص.
 - استعمال الخطين المغربي والثلث جنباً إلى جنب على مدى ثلاثة قرون.

قائمة المراجع:

- ناصر الدين سعيدوني والمهدي بو عبدلي، الجزائر في التاريخ، الجزء الرابع: العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤.
- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، الطبعة الثانية، كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، ١٩٦٥.
- عبد الرحمان الجبلاي، تاريخ الجزائر العام، ج ٣، ط ٦، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.
- Colin (G); Corpus des inscriptions arabes et turques d'Algérie, Département d'Alger, 1901.
- Devoulx(A); Epigraphie indigène du musée archéologique d'Alger , 1874.
- Mercier; Corpus des inscriptions arabes et turques d'Algérie, Département de Constantine, 1902.



صورة ١ / كتابة تأسيسية لعين بمدينة الجزائر - ١٧٦٦ م -
(تقنية الحفر)



صورة ٢ / كتابة تأسيسية لبرج باب عزون - ١٨٠٤ م -
(تقنية الحفر الغائر المملوء بالرصاص)



صورة ٣ / كتابة ثكنة باب عزون بمدينة الجزائر - ١٧٦٩ - (خط الثلث)



صورة ٤ / كتابة جامع سيدي الكتاني بمدينة قسنطينة - ١٧٧٦م - (خط النسخ)



صورة ٥ / جامع عين البيضاء بمدينة معسكر - ١٧٨٠ م - (الخط المغربي)



صورة ٦ / كتابة برج الانجليز بمدينة الجزائر - ١٦٦٩ م - (الخط الفارسي)